المحاضرة السادسة -٠٦-
الواقع السياسي العربي

لقد كان الواقع السياسي العربي بعد ضرب طموحات محمد علي باشا في إقامة دولة عربية كبرى من طرف بريطانيا وحلفائها على الشكل التالي:

١- البلاد العربية العثمانية:

لقد أدى النزاع الروسي العثماني حول حماية البقاع المقدسة في فلسطين إلى نشوب حرب القرن عام ١٨٥٤م بين الدولة العثمانية وحلفائها آنذاك بريطانيا وفرنسا ضد روسيا. التي انتهت بالتوقيع على معاهدة باريس يوم ٣٠ مارس ١٨٥٦م، منحت بموجبها الدولة العثمانية مركزا أكثر امتيازا من ذي قبل إلى الدولتين المتحالفتين معها، ونصت على احترام وحماية استقلال وسلامة ووحدة الأراضي العثمانية ومنع روسيا من الإستيلاء على القسطنطينية[١].

بعد ذلك زاد الاهتمام الأوربي ببلدان المشرق العربي في شتى صوره وقد ظهر أثره في جملة من الأطماع الفرنسية الإنجليزية.

٢- أطماع فرنسا في سوريا ولبنان:

يرجع اهتمام فرنسا ببلاد الشرق والبحر المتوسط إلى أيام الحروب الصليبية في العصور الوسطى. ومع مرور السنين أخذت تهتم ببسط نفوذها في سوريا ولبنان. فقد استطاعت أن تحصل على أول امتيازات أجنبية في الدولة العثمانية عام ١٥٣٦م[٢] وأصبح لها حق حماية المسيحيين الكاثوليك بالدولة العثمانية واهتمت بصفة خاصة بالموازنة في لبنان.

وأرسلت البعثات التبشيرية (الجزويت، الفرنسيسكان) التي كان في تبشيرها وفي مدارسها تدعيما للنفوذ الفرنسي في سوريا ولبنان. وبالرغم من الحملة الفرنسية على

---

[١]- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢م، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ٢٠٠٩م، ص ٤٤٣.

[٢]- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العثمانية، "تحقيق الدكتور إحسان حقي"، ط١٢، دار النفائس، بيروت، لبنان، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، ص ٢٢٣.

مصر والشام وسوء علاقة فرنسا بالدولة العثمانية إلا أنها استطاعت أن تستعيد امتيازاتها في الدولة العثمانية عام ١٨٠٢م.

وعندما بسط محمد علي نفوذه على الشام عام ١٨٣٢م أخذت انجلترا تدس للحكم المصري. وأرادت أن تستعين بالموارنة، ولكنهم رفضوا لتعلقهم بفرنسا، فاستعانت انجلترا بالدروز مما أدى إلى إثارة الفتنة الداخلية بين الموارنة والدروز[٣].

كصورة مصغرة للتنافس الاستعماري بين فرنسا وانجلترا، وقد استغلت الدولة العثمانية هذه الفتن الداخلية واستطاعت أن تبسط سيطرتها على لبنان بعد انتهاء الحكم المصري بالشام عام ١٨٤٠م.

لم ينته الأمر عند هذا الحدّ، فقد أخذ الإنجليز يرسلون الأسلحة والأموال للدروز لإثارتهم ضد الموارنة الذين حصلوا هم أيضا على أسلحة وأموال من فرنسا مما أدى إلى قيام مذابح دامية بين الفريقين[٤].

وحاولت فرنسا أن تنتهز الفرصة للتدخل، فدعا نابليون الثالث الدول الأوربية إلى التدخل لإخماد هذه الاضطرابات والفتن، فاتفقت الدول في باريس على أن ترسل حملة باسم الدول الأوربية إلى لبنان بشرط ألا تزيد مدة احتلالها للبنان على ستة أشهر. وعندما حاولت فرنسا أن تزيد هذه المدة وقفت لها إنجلترا بالمرصاد وانتهى الاحتلال الفرنسي في يونيو ١٨٦١م[٥].

وبعد ذلك اجتمعت لجنة دولية في بيروت اتفقت مع الدولة العثمانية على منح جبل لبنان نظاما إداريا خاصًا، يتولى الإدارة فيه متصرف "حاكم" مسيحي من رعايا الدولة بموافقة الدول الأوربية الكبرى، تحت إشراف الباب العالي مباشرة، وأن يشكل مجلس إدارة من أعضاء يمثلون مختلف الطوائف، وألا يعسكر الجنود العثمانيين في الجبل[٦] وفي ظل هذا النظام الذي استمر حتى الحرب العالمية الأولى[٧] زاد نفوذ القناصل الأوربيين الذين تدخلوا في جميع الشؤون الداخلية للبنان.

---

[٣]- للإطلاع أكثر عن ذلك: أنظر عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ٢٠٠٤م، ص ص ٢٧٩، ٢٨٠.

[٤]- المرجع السابق نفسه.

[٥]- محمد فريد بك المحامي، (المرجع السابق)، ص ٥٢٩.

[٦]- عبد العزيز محمد الشناوي، (المرجع السابق)، ص ٣٠٥، ص ٣١٠.

وقد عملت فرنسا على أن تزيد نفوذها في سوريا ولبنان وخاصة النفوذ الاقتصادي. فقد قامت الشركات الفرنسية منذ أوائل القرن العشرين بمد خطوط السكك الحديدية. والطرق البرية، وأعمال البرق والبريد وإنشاء الموانى. وهكذا استطاعت بنفوذها الثقافي والاقتصادي أن تجعل الدول الاستعمارية الأخرى تسلم بأن سوريا ولبنان منطقة نفوذ فرنسية.

٣- العراق:

رغم أنه كان تحت مظلة الخلافة العثمانية إلا أن إنجلترا استطاعت أن تدخل في علاقات تجارية وسياسية مع الولاة ورؤساء العشائر. وأدى ذلك إلى توطيد النفوذ البريطاني فيه وتحقيق أطماع انجلترا التي بدأت بمطامع تجارية تحولت فيما بعد إلى مطامع سياسية استعمارية.

واصلت انجلترا تحقيق أغراضها في العراق فأنشأت شركة بحرية للملاحة النهرية لتسيير سفن بخارية في نهري دجلة والفرات[٨]. كما مدت خطوط البريد والبرق وأرسلت إرساليات الكشف عن الآثار. وحرضت على ترويج تجارتها ومنع الدول الأخرى من النفوذ إلى العراق بمعارضة المشاريع الأوربية الأخرى.

ومما زاد في أطماع الإنجليز اكتشاف البترول في الموصل وكركوك. ولذلك انتهزت انجلترا فرصة قيام الحرب العالمية الأولى وأرسلت قواتها لاحتلال العراق[٩].

٤- الواقع السياسي العربي في الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية:

رغم أن بلاد الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية، رسميا هي من ممتلكات الدولة العثمانية غير أن إنجلترا بدسائسها ومؤامراتها رسمت لنفسها سياسة وهدفا في هذه الأراضي العثمانية هدفا واحدا هو السيطرة على هذه البلاد وجعلها مراكز ارتكاز

---

[٧]- نفسه، ص ٣١٠.

[٨]- عبد العزيز محمد الشناوي، (المرجع السابق)، ص ص ٧٧، ٧٨.

[٩]- أحمد رفيق البرقاوي، العلاقات السياسية بين العراق وبريطانيا "١٩٢٢-١٩٣٢م"، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م، ص ١٤.

تشرف من خلالها على طريق مواصلاتها إلى الهند. حتى تؤمن مصالحها وتجارتها في الشرق. ولذلك قوت نفوذها أكثر على مدخل البحر الأحمر[١٠] والخليج العربي بعد قضائها على الحملة الفرنسية معتمدا على وسيلتين تنفذ بهما سياستها دون أن تحتل هذه البلاد بقوات عسكرية كبيرة وهما:

- عقد معاهدات مع أمراء وشيوخ العرب، تلك المعاهدات التي تربطهم بقيود السيطرة البريطانية.
- إظهار قوة الأسطول البريطاني في الخليج العربي من وقت إلى آخر للإشراف على تنفيذ هذه المعاهدات مثل "معاهدة الصداقة والتجارة مع سلطان لحج عام ١٨٠٢م ومعاهدة مع إمام مسقط عام ١٨٠٠م[١١] التي تعهد فيها الإمام بإبعاد عملاء فرنسا عن البلاد، وإغلاق موانيه أمام الفرنسيين، وأن يستعين بمشورة موظف بريطاني يقيم في مسقط. وقد دعمت هذه المعاهدة بتحالف معه "أي إمام مسقط" وشيخ البحرين عام ١٨٢٠م بعد القضاء على الحركة الوهابية وخضوع الحجاز للحكم المصري عام ١٨١٩م، وتوسعه اتجاه الخليج شرقا والبحر الأحمر غربا ونحو اليمن وعدن، مما أدى إلى وقوع تصادم بين مصر وبريطانيا كاد يتحول إلى حرب بين الطرفين خاصة بعد عقد مندوب مصر لمعاهدة مع شيخ البحرين في مايو ١٨٣٩م تنص على: «أن يكون الشيخ صديقا لمصر وعدوًا لأعدائها. فأنذرت بريطانيا محمد علي بأن يبتعد عن هذه المنطقة، كما أرسلت أسطولها لينذر شيخ البحرين ويهدده، وفي نفس الوقت عملت انجلترا على تأنيب الدول الكبرى مع الدولة العثمانية حتى اضطر محمد على أن ينسحب من البحرين ومن الجزيرة العربية كلها بعد معاهدة[١٢] لندن عام ١٨٤٠م وقبل عام من ذلك ١٨٣٩م احتلت عدن وجنوب اليمن».

---

[١٠]- عبد الحميد البطريق، من تاريخ اليمن الحديث (١٥١٨-١٨٤٠م)، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٦٩م، ص ص ٣٦، ٣٧.

[١١]- سليمان الغنام، (المرجع السابق)، ص ٥٣.

[١٢]- أنظر بنود المعاهدة (سليمان الغنام، سياسة محمد علي باشا التوسعية في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا (١٨١١-١٨٤٠م) "قراءة جديدة"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، ص ١٨٩ وما بعدها.

وبعد أن عادت الجزيرة العربية إلى الدولة العثمانية، عمل العثمانيون على تدعيم نفوذهم بها فاحتلوا الأحساء عام ١٨٧١م واستغلوا العاطفة الدينية لجذب الأمراء والمشايخ، وأيدو المشروع الألماني لمدّ سكة حديد برلين، بغداد، البصرة، الكويت، ولكن العثمانيين لم يستطيعوا الصمود أمام النفوذ الإنجليزي. الذي عمل على تقوية نفوذه بالمنطقة فقعد معاهدة أخرى مع سلطان مسقط عام ١٨٩٢م تعهد فيها عن نفسه وعن حلفائه بألا يتنازل أو يبيع أو يرهن شيئًا من أراضي مسقط أو عمان إلا للحكومة البريطانية فقط. وعقد مثل هذه المعاهدة مع شيخ البحرين وشيخ قطر وغيرهما[١٣]. أما الكويت فقد رحب الشيخ مبارك آل صباح في أواخر القرن ١٩م بالنفوذ البريطاني ليستعين به ضد الضغط العثماني والألماني وعقد معاهدة مع بريطانيا عام ١٨٩٩م، وبمقتضاها تقدمت القوات البريطانية لحماية الكويت.

وهكذا نرى أن انجلترا استطاعت أن تفرض سيطرتها على المشيخات والإمارات العربية خلال القرن ١٩م، وقد أدى اكتشاف البترول في هذه المناطق إلى تمسك بريطانيا بها.

٥- الواقع السياسي في مصر:

لم يكن خلفاء محمد علي بالمستوى الذي كان عليه من حيث الأهلية للحكم والقوة والذكاء، عدا إبنه إبراهيم الذيل لم يحكم سوى سبعة شهور.

إن الاستقلال السياسي والاقتصادي الذي نجح محمد علي في المحافظة عليه فرط فيه ورثته، الذين غرقوا في الديون بسبب تبذيرهم ومحاولاتهم تقليد محمد علي والتفوق عليه في إقامة مشاريع التنمية. وهم لم يكتفوا بتبديد ميزانية الدولة في وسائل الترف وفي المظاهر البراقة والسطحية للحضارة الحديثة وكانوا يبحثون عن وسائل التنعم والترف الشخصي لهم وللفئات الاجتماعية المرتبطة بهم[١٤].

---

[١٣]- عبد الكريم محمود غرايبة، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م، ص ص ٢٢٧، ٢٢٨.

[١٤]- للإطلاع أكثر أنظر عبد العزيز محمد الشناوي، (المرجع السابق)، مظاهرات التبذير الأسطوري في حكم إسماعيل"، ص ٣١ وما بعدها. وانظر كذلك محاضرات: "منور مروش عن المشرق العربي الحديث والمعاصر "١٥١٧-١٩١٦م"، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ١٤٠٨-١٤٠٩هـ/١٩٨٨-١٩٨٩م.

هكذا كان عباس "١٨٤٩م-١٨٥٤م" ينفق العائدات المتزايدة من إنتاج القطن الذي ارتفع محصوله من ١٢٠ ألف قنطار سنة ١٨٤٨م إلى ٦٧٠ ألف قنطار سنة ١٨٥٢م في بناء الحدائق والمتنزهات والقصور ورحلات الترفيه وعند موته ترك ديونا ضخمة على مصر كما فتح أبواب واسعة لحرّية الأجانب في التجارة أو الإتجار المباشر مع مصر وجاء بعده سعيد "١٨٥٤-١٨٦٣م" الذي حاول أن يشجع زراعة القطن بتخفيض رسوم التصدير من ١٠% إلى ٠١% وبتوزيع الأراضي على شيوخ القبائل والقرى حتى يتمكن هؤلاء من التسلط التام على الفلاحين وتسخيرهم إلى أقصى حدّ في إنتاج محاصيل وافرة من القطن وتصديرها، لكن في نفس الوقت توسع سعيد في بناء الطرق والترع والسكك الحديدية إلى جانب البدء في شق قناة السويس[١٥].

وهكذا أخذ الدين العام والديون الخاصة للعائلة الحاكمة بالتزايد، فعند وفاة سعيد سنة ١٨٦٣م كان الدين العام قد بلغ ما بين ١٠ و١٢ مليون جنيه إسترليني. وتدهور الوضع بشكل خطير في عهد إسماعيل حيث بلغ الدين العام سنة ١٨٦٤م ٢٤ مليون جنيه إسترليني[١٦].

إن إسماعيل كانت له إرادة وبرنامج تحديث مصر بطريقة معينة أغرقت مصر في الديون وكان هذا هو الباب الأول للتدخل الأجنبي المباشر في مصر باسم الدفاع عن الدائنين وحماية قروضهم وضرورة الإشراف الأجنبي على ميزانية مصر وعلى مجموع الاقتصاد المصري لاستخلاص الأموال اللاّزمة لتسديد هذه القروض.

كذلك اتصفت سياسة إسماعيل بفتح أبواب واسعة للتدخل الأجنبي عن طريق منح امتيازات للرأس المال الأجنبي وتخفيف الحضر في تملك الأراضي داخل مصر بحيث أصبحت مساحات كبيرة في أيديهم إما كملكية فردية أو كملكية بيد شركات كبرى.

---

[١٥]- منور مروش، (محاضراته عن المشرق العربي الحديث والمعاصر "١٥١٧-١٩١٦م")، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ١٤٠٨-١٤٠٩هـ/١٩٨٨-١٩٨٩م.

[١٦]- نفسه.

كما اتسعت الاستثمارات الأجنبية التي بلغت ٦.٣ مليون جنيه إسترليني سنة ١٨٨٣م "أي بعد فرض الحماية الإنجليزية مباشرة" "ودون اعتبار الديون المصرية" مع ١٥.٦ مليون جنيه إسترليني استثمارات خاصة بمشروع قناة السويس.

وكان هؤلاء المستثمرون الأجانب هم الفرنسيون والبريطانيون[١٧] وخلاصة ما يمكن قوله أن شركة قناة السويس كانت من العوامل الرئيسية لتكاثر الديون المصرية وتزايد السيطرة الاستعمارية التي بدأت اقتصادية وتحولت شيئا فشيئًا إلى سيطرة سياسية توجت باحتلال مصر من طرف الإنجليز عام ١٨٨٢م بعد مساومات كثيرة مع خصومهم الفرنسيين. ورغم ثورة أحمد عرابي التي ضحى فيها المصريون بأبنائهم دفاعا عن وطنهم.

وعندئذ أعلنت انجلترا بعد أن تمت لها السيطرة على مصر أن احتلالها لها مؤقت وإن مصر باقية تحت السيادة العثمانية. هذا في الوقت الذي أخذت فيه انجلترا تعمل على تفكيك الإمبراطورية المصرية في إفريقيا، والدخول إلى قلب إفريقيا منتهزة الثورة التي قام بها محمد أحمد المهدي في السودان ضدهم وضد الحكام المصريين في أغسطس ١٨٨١م.

٦- الجزائر:

كانت أول دولة عربية تبتلى باستعمار فرنسي لاتيني حاقد استيطاني تصدى له الشعب الجزائري عبر مقاومات شعبية منظمة كمقاومة الأمير عبد القادر ١٨٣٤-١٨٤٧[١٨] في الغرب الجزائري ومقاومة أحمد باي في الشرق الجزائري[١٩] ومقاومات شعبية ١٨٣٠-١٨٣٧م ومقاومات شعبية غير منظمة كثورة الزعاشة ١٨٤٨م-

---

[١٧]- منور مروش، نفسه.

[١٨]- أبو القاسم سعد الله، خلاصة تاريخ الجزائر، المقاومة والتحرير "١٨٣٠-١٩٦٢م"، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٥م، ص ٢٦ وما بعدها.

[١٩]- نفسه، ص ٤٢ وما بعدها.

١٨٤٩م جنوب غرب مدينة بسكرة بزعامة الشيخ بوزيان أحد أتباع الأمير عبد القادر وثورة لالة فاطمة نسومر ١٨٥١-١٨٥٧م بجبال جرجرة والتي تولت قيادة الثورة بعد استشهاد الشريف بوبغلة "الأمجد بن عبد الملك"، وثورة أولاد سيدي الشيخ ١٨٦٤-١٨٨٠م في واحة الأبيض سيدي الشيخ الواقعة جنوب غرب الجزائر بزعامة سي سليمان بن حمزة وثورة الحاج المقراني عام ١٨٧١م[٢٠] كل هذه الثورات وغيرها وإن فشلت في تحقيق آمال الشعب الجزائري، إلا أنها بينت بأن الشعب الجزائري لم يستسلم ولم ينم على ضيم رغم تفوق فرنسا عليه بشكل كبير عددًا وعدّة.

وبعد أن تمكّن الفرنسيون من تثبيت وجودهم عسكريا في الجزائر شرعوا في سياسة استيطانية شرسة حيث صادروا أملاك الوقف عام ١٨٣٠م والزوايا عام ١٨٤٠م، وتحويل المساجد إلى كنائس كجامع كتشاوة أو إلى مراكز طبية وإدارية ومستودعات واصطبلات بهدف تنصير الجزائريين. هذا إلى جانب نفي وإبعاد الأئمة والعلماء المعارضين لسياستها، ناهيك عن محاربة اللّغة العربية الفصحى وتشجيع اللّهجات المحلية وإحلال محلها الفرنسية وتعميم استعمالها وتشويه تاريخ الجزائر العربي المسلم والتركيز على التاريخ الروماني، البيزنطي للإيحاء بفكرة الإنتماء والتواصل...

ورغم ذلك حاول الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث التودّد للجزائريين بعد زيارته للجزائر الأولى ١٨٦٣م والثانية ١٨٦٥م[٢١] إلا أن هذا التودّد كان كالسراب يحسبه الضمآن ماءً.

وبعد سقوطه إثر حرب السبعين بين فرنسا وألمانيا وقيام الجمهورية الثالثة التي استفاد منها بكثرة الكولون والكنيسة الكاتوليكية الفرنسية وترك الأمر لتسيير الجزائر للكولون ومن معهم. وكانت هذه الفترة في الجزائر "١٨٧٠-١٨٩١م" فترة استعمارية

---

[٢٠]- أبو القاسم سعد الله، ص ٤٨ وما بعدها.

[٢١]- شارل روبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، ط٢، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢م، ص ٦١.

رهيبة، واستغلال في أبشع صورة[٢٢] نجى منها يهود الجزائر بتجنيسهم جميعا من طرف وزير الداخلية الفرنسي اليهودي كريميو في أكتوبر ١٨٧٠م. وقد كان لقرار تجنيس اليهود الذي أصدره هذا الوزير عواقب وخيمة على الجزائر فيما بعد، ولعلّ بقاياه لا زالت موجودة إلى اليوم.

٧- تونس:

استقلت تونس عن الدولة العثمانية في عهد الأسرة الحسينية[٢٣] "١٧٠٥-١٩٥٧م" ولم ترتبط بالدولة العثمانية إلا برباط الولاء للخلافة، وقد حاول باياتها النهوض بها متأثرين في ذلك بما جرى من إصلاحات في الدولة العثمانية على يد الخليفة محمود الثاني وما حدث في مصر في عهد محمد علي بهدف تطوير الدولة وإقامتها على أسس الحضارة الحديثة.

وكان الباي أحمد الأول أول من تبنى الإصلاحات فيها "١٨٣٧-١٨٥٥م" متأثرًا بما رآه من مظاهر الحضارة الحديثة أثناء زيارته لفرنسا عام ١٨٤٦م. وقد تناولت مشاريعه الإصلاحية عدة قطاعات منها تطوير أجهزة الحكم وتشكيل جيش حديث، تقوية الأسطول التونسي والعناية بالتعليم... إلا أنه في الوقت الذي بدأ فيه يبتعد عن الدولة العثمانية بدأ يتقرب من فرنسا التي كانت تتحيز الفرص للإستيلاء على بلاده.

وتولى بعد الباي أحمد الباي محمد الثاني[٢٤] الذي عاد إلى الإرتباط بالدولة العثمانية وأوقف العمل بالتوسع في المشاريع الإصلاحية بحجة إرهاقها للخزينة، واكتفى بإدخال الطباعة إلى تونس وجرّ المياه في الأنابيب إلى العاصمة. كما أعلن عهد الأمان الذي يعتبر أول دستور من نوعه في الوطن العربي. ثم استولى بعده

---

[٢٢]- شارل روبير أجيرون، ص ٦٢ وما بعدها.

[٢٣]- للإطلاع أكثر عن هذه الأسرة (أنظر أحمد بن أبي الضياف، اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان، المجلد١، الجزء٢، تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، منشورات زخارف، تونس، ٢٠١٦م، ص ٨٧ وما بعدها).

[٢٤]- أنظر: أبا عبد الله بن عثمان السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، ط١، ج١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م، ص ١٣٧.

أخوه محمد الصادق باي "١٨٥٩-١٨٨٢م"[٢٥] الذي كان متحمسًا للتجديد والإصلاح عن طريق الاستدانة من الدول الأجنبية بينما كان الأول يعتمد في ذلك على إرهاق الشعب بالضرائب. ومن إصلاحاته استبدال عهد الأمان بوثيقة دستورية في عام ١٨٦١م. وقد استعان هذا الباي بالوزير المصلح خير الدين التونسي أو باشا وعيّنه رئيسا للوزراء عام ١٨٧٣م لإخراج البلاد من الأزمة المالية التي وقعت فيها نتيجة للقروض الأجنبية ولكن هذا التعيين جاء بعد فوات الأوان فاليد الأجنبية أصبحت تتلاعب بقوانين البلاد وتؤولها لصالحها وبذلك ذهبت جهود خير الدين الإصلاحية سدى[٢٦].

وعندما ساءت أحوال تونس المالية خشيت فرنسا من ازدياد نفوذ إيطاليا في تونس فعجلت باحتلال تونس خاصة بعد اطمئنانها إلى تشجيع ألمانيا وانجلترا، فبعد مؤتمر برلين ١٨٧٨م وافق "سالسبوري" رئيس وزراء انجلترا على أن تسكت انجلترا عن احتلال فرنسا لتونس مقابل سكوت فرنسا على احتلال انجلترا لقبرص[٢٧]، كما أن بسمارك شجع فرنسا على الاستيلاء على تونس حتى يشغلها عن مطالبة ألمانيا بالألزاس واللّورين، وحتى يبعد قوة فرنسا العسكرية عن الحدود الألمانية الفرنسية[٢٨].

وعندما تهيأت الظروف لفرنسا وانتهزت فرصة اجتياز قبيلة الكرميين حدود الجزائر الشرقية من تونس في مارس ١٨٨١م. فأمر رئيس الحكومة الفرنسية جول فيري بتخطي الحدود الفرنسية واستولت على العاصمة وأجبرت الباي على توقيع معاهدة باردو في ١٢ مايو ١٨٨١م[٢٩] والتي نصت على أن تحتل القوات الفرنسية المراكز التي تراها مناسبة وملائمة لاستتباب الأمن والنظام. كما أجبرت باي تونس

---

[٢٥]- عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ط١، ج٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص ٣٥٢.

[٢٦]- الشيباني بن بلغيث، الجيش التونسي في عهد الصادق باي "١٨٥٩-١٨٨١م"، تحقيق عبد الجليل التميمي، ط١، دار الغرب، صفاقص، تونس، ١٩٩٥م، ص ص ٧٠، ٧١.

[٢٧]- محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ص ١٢٣.

[٢٨]- خليفة الشاطر وآخرون، تونس عبر التاريخ، ج٣، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ٢٠٠٥م، ص١٧.

[٢٩]- يونس درمونة، تونس بين الاتجاهات، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، ١٩٥٣م، ص ١٥٣.

محمد الصادق على توقيع اتفاقية "المرسى" التي أقرّ فيها بوضع الشؤون المالية لتونس تحت الوصاية الفرنسية وتعهد الباي بقبول كل ما تفرضه فرنسا عليه.

وهكذا واجه الشعب التونسي كشقيقه الشعب الجزائري استعمارا صليبيًا لاتينيًا بمقاومات شعبية أخمدتها فرنسا باستخدام الوحشية والقسوة.

٨- ليبيا:

بالرغم من المشاكل الداخلية التي عانتها إيطاليا بعد وحدتها القومية عام ١٨٧٠م كان ساستها يعتبرون شمال إفريقيا خاصة تونس وليبيا مجالهم الحيوي. ولذلك حزّ في نفوسهم احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١م[٣٠] وأرادوا أن يعوضوا ما فاتهم بالتوسع في البحر الأحمر القرن الإفريقي مغتنمين فرصة إنهيار الإمبراطورية المصرية وتشجيع إنجلترا لهم فكونوا مستعمرة لهم في إرتيريا وجزء من الصومال وبعد ذلك تطلعوا إلى احتلال الحبشة ولكنهم انهزموا هزيمة نكراء أمام الأحباش في معركة عدوة عام ١٨٩٥م وبذلك تخلوا عن أطماعهم فيها.

بعدها توجهوا إلى البحر الأبيض المتوسط فلم يجدوا سوى ليبيا، حيث تفاهموا مع فرنسا واعترفوا بحمايتها لتونس وعقدوا معها معاهدة تجارية وصداقة، ووقفوا موقفا محايدًا في مؤتمر الجزيرة عام ١٩٠٦م السابق ذكره.

ثم اتفق الإيطاليون مع فرنسا عام ١٩٠٢م على أن تعترف إيطاليا بمصالح فرنسا في المغرب الأقصى مقابل أن تطلق فرنسا يد إيطاليا في ليبيا[٣١].

مهدت إيطاليا لاحتلال ليبيا بتغلغل سلمي استخدمته كجسر للغزو العسكري[٣٢] عن طريق جاليتها الكبيرة بليبيا التي أنشأت الكثير من المدارس والمستشفيات

---

[٣٠]- فرانشيسكو مالجيري، الحرب اللّيبية "١٩١١-١٩١٢م"، ترجمة وهبي البوري، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، ١٩٩٨م، ص ١٧.

[٣١]- رأفت الشيخ، تاريخ العرب المعاصر، عين للدراسات والبحوث افنسانية والاجتماعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٩٦م، ص١١٥.

[٣٢]- خليفة محمد التلسي، معجم معارك الجهاد في ليبيا (١٩١١-١٩٣١م)، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٣م، ص٢٠.

والملاجئ واستخدامها كمراكز للدعاية والتبشير[٣٣]. كما أسسوا المصارف المالية أشهرها بَنْكُ دي روما عام ١٩٠٥م[٣٤] الذي استغل عمليات القرض والرهن في مصادرة الأراضي واغتصابها تحت ستار الديون[٣٥]،

وبذلك أصبح لإيطاليا مصالح قوية ونفوذ واسع في ليبيا، مما أدى إلى ثورة الأهالي على هذا الوضع وطالبوا الدولة العثمانية باتخاذ إجراءات حاسمة. ولكثرة التكالب الأوربي عليها خاصة في منطقة البلقان وعجزها عن التدخل العسكري اكتفت بعزل الوالي العثماني فقط.

احتلال ليبيا:

إدعت إيطاليا أن اضطراب الأمن بليبيا يضّر بمصالح الإيطاليين وأرسلت إنذارًا للدولة العثمانية بهذا المعنى، ثم أرسلت أسطولها لمحاصرة السواحل اللّيبية وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية يوم ٢٩ سبتمبر ١٩١١م[٣٦] بعد أن دعاها العثمانيون إلى المفاوضات حيث رفضتها جملة وتفصيلاً وفي الوقت الذي كانت القوات الإيطالية تتوقع سقوط المدن اللّيبية الساحلية بسهولة فوجئت بمقاومة شرسة ضربت فيها الحاميات العثمانية والشعب اللّيبي والمتطوعين العرب أروع الأمثلة في الدفاع عن الوطن لم تأبه بالتفوق العسكري الإيطالي كمعركة الشطّ في ٢٣ أكتوبر ١٩١١م ومعارك "بوملیانة، جولیانة، بیرطراس، بني آدم".

في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية، تخوض غمار الحرب ضد إيطاليا في ليبيا، كان جزء كبير من قواتها يخوض غمار حرب أخرى في البلقان[٣٧]، وهذا ما شجع إيطاليا على توسيع حربها ضد الدولة العثمانية حتى تجبرها على التسليم،

---

[٣٣]- إسماعيل أحمد ياغي، محمود شاكر، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، قارة إفريقيا، ج٢، دار المريخ للنشر، الرياض، السعودية، ١٩٩٣م، ص ٢٠.

[٣٤]- صلاح العقاد، ليبيا المعاصرة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، مصر، ١٩٧٠م، ص ١٢.

[٣٥]- شوقي أبو خليل، الإصلاح وحركة التحرر العربية، ط١، دار الأنوار للطباعة، دمشق، سوريا، ١٩٧٦م، ص ١٣٤.

[٣٦]- علي محمد الصلابي، الحركة السنوسية في إفريقيا، ط٣، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م، ص ١٤٠.

[٣٧]- شوقي عطاء الله الجمل، عبد الرزاق إبراهيم، تاريخ العالم العربي الحديث والمعاصر، ط١، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة، مصر، ٢٠٠٧م، ص ٣٧٧.

فهاجمت الدردنيل، وميناء بيروت، وحاصرت سواحل اليمن وضربت ميناء الحُديدة، وحرضت على قيام الثورات في ألبانيا ومقدونيا، واحتلت جزيرة رودس كوسيلة للضغط.

وأمام هذا الوضع العسكري الحرج اضطرت الدولة العثمانية إلى إيقاف القتال في ليبيا والتوقيع على معاهدة لوزان أوشي في سويسرا في ١٨ أكتوبر ١٩١٢م[٣٨] والخروج من ليبيا، وهنا بادر أحمد الشريف بإعلان الحكومة السنوسية لسدّ الفراغ المترتب عن انسحاب القوات العثمانية من البلاد وكان شعار تلك الحكومة "الجنة تحت ظلال السيوف"[٣٩].

٩- المغرب الأقصى:

بعد الاستعمار الفرنسي للجزائر إضطر السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن إلى الخروج عن عزلته ومواجهة فرنسا مباشرة بعد مناصرته لجهاد الأمير عبد القادر، مما أدى إلى اصطدام الجيشين الفرنسي والمغربي في معركة إيسلي[٤٠] إنهزم فيها الجيش المغربي وتوقيع مولاي عبد الرحمن لمعاهدة ١٨٤٤م التي نصت على ترسيم الحدود الفاصلة بين الجزائر والمغرب، وعدم مساعدة الأمير عبد القادر[٤١] ومنذ ذلك الوقت كان المغرب يعمل بسياسة النأي بالنفس، إلاّ أنه تعَرض عام ١٨٦٠م إلى حرب من طرف إسبانيا[٤٢] احتلت بموجبها تطوان وكانت مهينة في حقه.

---

[٣٨]- شوقي أبو خليل، الإسلام وحركات التحرر العربية، ط١، دار الأنوار للطباعة، دمشق، سوريا، ١٩٧٦م، ص ١٣٥.

[٣٩]- علي محمد الصلابي، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، ج٢، ط١، دار البيارق، بنغازي، ليبيا، ١٩٩٨م، ص٢٠٣.

[٤٠]- عبد الكريم محمود غرايبة، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م، ص ١٧٣.

[٤١]- نفسه.

[٤٢]- نفسه، ص ١٧٨.

وعندما تولى السلطان مولاي الحسن "١٨٧٢-١٨٩٤م" العرش قام بمحاولات إصلاحية لإبعاد الأطماع الأوربية في بلاده وإفلاتها من نفوذهم[٤٣].

وعندما تولى العرش مولاي عبد العزيز "١٨٩٤-١٩٠٨م" لم يستطع الوقوف في وجه التغلغل الأوربي المتزايد نتيجة ضعف شخصيته وصغر سنه، ووقوع الخزينة تحت وطأة الإفلاس، ناهيك عن الحركات الإنفصالية الداخلية[٤٤] المشجعة من الفرنسيين والإسبان.

أ- التنافس الاستعماري على المغرب الأقصى:

بعد احتلال فرنسا لتونس، طمعت في احتلال المغرب الأقصى* غير أنها لم تكن لوحدها في ذلك، فقد ظهرت إسبانيا أيضا في مسرح الأحداث حيث اعتبرت المغرب من مناطق نفوذها، بحكم القرب الجغرافي.

أما انجلترا فقد نشط عملاؤها في طنجة وبدؤوا يراقبون الأحداث الداخلية، وكذلك ألمانيا شرعت في مدّ نفوذها هناك. وبدأت تتقرب من السلطان المغربي ليستعين بخبرائها ومستشاريها، حيث أسست عام ١٨٧٣م مفوضية لها في طنجة ووسعت مبادلاتها التجارية معه.

وأمام ظهور منافس جديد لكل من فرنسا وبريطانيا حدث نوع من التقارب بينهما لمواجهة هذا المنافس والعدو المشترك "ألمانيا". فعقدتا بينهما "الوفاق الودّي" عام ١٩٠٤م الذي نص على أن تطلق إنجلترا يد فرنسا في المغرب مقابل أن تطلق فرنسا يد إنجلترا في مصر. وفي نفس الوقت اتفقت فرنسا مع إسبانيا عام ١٩٠٤م على أن تعترف إسبانيا بمنطقة نفوذ فرنسا الخاص في المغرب، مقابل إعتراف فرنسا

---

[٤٣]- للإطلاع أكثر أنظر، نفسه، ص ص ١٨١، ١٨٢.

[٤٤]- عبد الكريم محمود غرايبة، ص ١٧٣. وانظر كذلك: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط١٠، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م، ص ص ٦٣٤، ٦٣٥.

*- سبق لفرنسا عام ١٩٠١م ان أبعدت إيطاليا من مزاحمتها في احتلال المغرب مستغلة أزمتها الاقتصادية عام ١٩٠١م، وحاجتها الماسة للأموال، فوقع الطرفان اتفاقًا، اعترفت بموجبه إيطاليا بالمصالح الفرنسية في المغرب مقابل إعتراف فرنسا بالمطامع الإيطالية في ليبيا.

بمنطقة نفوذ إسبانيا في منطقة الريف شمال المغرب الأقصى القريبة من أراضيها[٤٥] وقد تم تكريس هذه الاتفاقية بعد احتلال المغرب من الدولتين عام ١٩١٢م.

ب- مؤتمر الجزيرة ١٩٠٦م:

الظاهر تاريخيا أن فرنسا بعد الاتفاق الودي عام ١٩٠٤م، تشجعت وبدأت تتجاهل احتجاجات ألمانيا التي كان أخطرها نزول الإمبراطور الألماني "غليوم الثاني" في مدينة طنجة يوم ٣١ مارس ١٩٠٩م حيث أيّد سيادة السلطان المغربي على كامل أراضيه[٤٦] ودعا إلى مؤتمر دولي لوضع حدّ لأطماع الدول في المغرب. وبعده دعا السلطان المغربي هو الآخر إلى عقده حينما تيقن من وجود تكتل أوربي ضدّ استقلال بلاده معتمدا في ذلك على تأييد بعض الدول الأوربية لبلاده، وفي مقدمتها ألمانيا. لذلك علق السلطان آمالاً كبيرة على هذا المؤتمر، ولكن في الأخير خابت آماله عندما أيدت الدول الأوربية موقف فرنسا في مسعاها، حيث انحازت لها كل من بريطانيا وإسبانيا وإيطاليا، ولم يقف بجانب ألمانيا سوى النمسا. وجاءت قرارات المؤتمر خادمة ولصالح فرنسا وإسبانيا[٤٧].

ج- حادثة أغادير ١٩١١م وتقسيم المغرب:

انتهزت فرنسا قيام بعض القبائل بالثورة على السلطان مولاي عبد الحفيظ لتخاذله في حماية البلاد، فدخلت القوات الفرنسية المغرب وأخمدت الثورة واحتلت فاس في مارس ١٩١١م، وفي الوقت نفسه تقدمت القوات الإسبانية واحتلت كلاً من العرايش والقصر الكبير وتطوان[٤٨] أما ألمانيا فقد أرسلت بسفينة حربية إلى ميناء

---

[٤٥]- كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٦٣٥.

[٤٦]- نفسه.

[٤٧]- جاءت قرارات مؤتمر الجزيرة في ١٢٣ مادة فرضت بموجبها شروطا قاسية كانت في رأي وزير خارجية المغرب بن سليمان بمثابة "حكم مؤقت على المغرب المستقل"، عبد الكريم محمود غرايبة، المرجع السابق، ص ١٨٣.

[٤٨]- عبد الكريم محمود غرايبة، المرجع السابق، ص ١٨٦.

أغادير بحجة حماية المصالح الألمانية التجارية[٤٩]، ولكنها سرعان ما تراجعت عن موقفها ورضخت للأمر الواقع بعد أن منحتها فرنسا جزءًا من ممتلكاتها في الكونغو.

وبعد أن تمكنت فرنسا من إسكات المعارضة الألمانية فرضت على السلطان عبد الحفيظ في ٣٠ مارس ١٩١٢م نص المعاهدة وأرغمته على التوقيع عليها معترفا بما جاء فيها من بنود تكرس فيها حماية فرنسا للمغرب ما عدا طنجة والمنطقة الإسبانية. وثار الشعب ضد هذه المعاهدة إلا أن فرنسا أخمدتها بقسوتها ووحشيتها[٥٠] وتنازل السلطان عن عرشه يوم ١٢ أغسطس ١٩١٢م[٥١] لإبنه مولاي يوسف.

وفي ٢٧ نوفمبر ١٩١٢م عقدت معاهدة بين فرنسا وإسبانيا أيدتا بها اتفاقهما الماضي بشأن تحديد منطقة نفوذ كل منهما وبذلك تم تفتيت المغرب إلى الأقسام التالية:

- منطقة الحماية الفرنسية "المنطقة السلطانية".
- منطقة الحماية الإسبانية "الريف المغربي ومنطقة أفني المطلة على المحيط الأطلسي.
- منطقة طنجة الدولية.

---

[٤٩]- عرفت هذه العملية أو الهجوم "بوثبة النمر" لأن ألمانيا أرسلت إلى أغادير مركبًا بحريًا اسمه النمر. "أنظر كار بروكلمان، المرجع السابق، ص ٦٣٦".

[٥٠]- عبد الكريم محمود غرايبة، نفسه.

[٥١]- نفسه.